حضور عربي وأفكار مستنيرة

إبراهيم السواعير [1]

وأنا أقف على منصّة الاحتفال يوم توزيع جائزة الأسرة العربيّة في الشّارقة، كنتُ أشعر بالزهو والعزّ والفخار بأنّ امرأةً في بلدي تقف الآن لتتسلم مثل هذه الجائزة الرفيعة، فتصطفّ وراءها كلّ الأيّام الصّعبة والمنجزات الراسخة والباقية للأجيال.

إنسانة نذرت عمرها للآخرين، وها هي الآن تحلّق مثل غيمةٍ فوق سماء الوطن العربي، لتمطر حبًّا وتجارب راسخة. امرأة نبتت في صوّان من جبال نابلس لتحطّ على ذرى مدينة السلط، كاتبةً في كلّ خطوة من حياتها قصّة نجاح.. إنّها هيفاء البشير.

حين كنتُ أحاورها حول ذهنية المجتمع ونظرته لعمل المرأة، وهل كانت طريقها معبّدةً لتشارك في الحياة العامّة، أطلقت هيفاء البشير ناظريها بعيدًا في أزمان مليئة بالتحدي والصبر والدأب، أولًا على خوض المغامرة، مغامرة التأثير في هذه الذهنيّة وحفز المرأة لتنطلق من حالة الجمود المجتمعي والتصنّم الذي بلغ في فترات ماضية حدّ عدم النموّ والاقتصار على القليل القليل مما هو سائد، وما رُسم لها من دور لا يمكن أن يتناسب مع عطائها الإنساني غير المحدود.

وثانيًا أنّ هذه الجرأة ما كانت في الواقع لتؤسس في ما بعد لأجيال ونساء تبوأن في مضمار العمل المؤسسي مناصب مهمّة، لولا أنّ لمعة القيادة والريادة والعطاء كانت تتوقّد في وجدانها وعقلها لتقتحم السائد وتحرّك الماء الساكن السّاكت عن قصور وضعف هذا الدور، فكان أن ذهبت تدرس وتشارك وتدخل غمار العمل القيادي، وتتفهّم مرحليّة تغيير

(1) أديب وصحفي.

ذهنية المرأة وحفزها على الثقة بالعطاء والمشاركة، ولهذا، فإنّ لدى البشير حافزين لبلوغ هذه الشهرة، وهما أنّ قلبها لم يكن معطّلًا، وكذلك دماغها، فكلاهما يحثّها على أن تقدّم وتعمل وتربي الأسرة الخاصّة وتعطف على الأسرة العامة المريضة في المجتمع، والحقيقة أنّ امرأةً تجد من زوجها الوزير والشهيد المرحوم محمد البشير دعمه ومساندته وتنطلق في رحاب التطوّع وتنفيذ الأفكار الخيّرة لهي جديرةٌ بأن نقرأها بعين إنجازاتها وفكرها وروحها العذبة ودأبها في هذه الرحلة أو المشوار من العطاء.

إحساس إنساني

في الواقع الكتابة عن هيفاء البشير تتعدد، وتتكامل أيضًا في حقول تحتاج إلى قراءة موسّعة، ففي ميدان الطفولة لها حكايات وذكريات كفيلة بأن تصنع منها الإنسانة والمبدعة والكاتبة، وصاحبة الإحساس المرهف الذي وجَّهها إلى العمل الخيري والتطوعي، وفي مجال الأدب لها قصصٌ مع الطفل وقراءة للمكان من خلال حواراتها مع حفيداتها وأحفادها، وفي مجال العمل الإنساني أيضًا، ما تزال جمعية الأَسرّة البيضاء تعطي ثمارها بعد أن وضعت أول مداميكها، وفي حقل الحضور الأدبي والثقافي ها هو منتدى الرواد الكبار، كتجربة مُهمة أثرت الفكر والأدب والفن والثقافة والمعرفة، والمجالات كثيرة، ولكنّي سأتطرّق إلى ما بدأتُ به الحديث في سياق حضور هيفاء البشير على المستوى العربي، والأجنبي أيضًا، وأعتقد أنّ هذا الحضور يتواصل مع الجوانب الأخرى الإبداعيّة لديها، وأبدأ بالحضور الإعلامي والاهتمام العربيّ الأحدث في جائزة صاحب السّمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى لاتحاد الإمارات حاكم الشارقة، إذ كتبت الصحف الإماراتيّة والعربية عن تكريمه للسيدة هيفاء البشير- مُنظّمة الأسرة العربيّة، وفوزها بجائزة هذه المنظمة، فقد كانت السيرة العطرة تُضاف إلى المشوار

الحافل في تكريمات عربيّة ودوليّة سابقة سنأتي على ذكرها في هذه الإطلالة المتفرعة على أكثر من موضوع.

بين السطور..

وقد كنتُ، وأنا أقرأ السيرة العطرة لهيفاء البشير، أحاول بصفتي صحفيًّا وأديبًا أن أقرأ ما وراء السطور التي تشير إلى فوزها، ومشاركتها أو حضورها وتأسيسها وما إلى ذلك من العلامات الفارقة والواضحة لمشوارها. لذلك لم أجدني إلا وأنا أحاور السيّدة هيفاء البشير بحضور القاصّة والكاتبة القديرة سحر ملص، المستشارة الثقافية في منتدى الرواد الكبار ومؤلفة القصص الرائعة التي تشفّ عن آفاقها ورومانسيّتها في الكتابة واستبطان حياة الناس والمكان، بل أيضًا مؤلفة كتاب «هيفاء البشير: تجربة وحياة»، الكتاب الذي حمل عذوبة الكاتبة والمحتفى بها في مراحل الطفولة وأوراق الماضي، ومراحل الخطوبة والزواج، والانتقال من نابلس إلى عمان، والأمومة وبذور العمل التطوعي، وعملها في الاتحاد النسائي العام، وعضوية مجلس أمانة عمان والمجلس الوطني الاستشاري ومجلس الصحة العالمي، وعلاقتها بالفن والثقافة والأدب والكتابة، وانتظامها في كلية التمريض.. والكثير من المحطات الشفيفة من حياتها. أقول إنّ حوار السيدة هيفاء البشير بوجود أديبة مثل سحر ملص، أعلم مسبقًا شغفها بطقوس الكتابة والخيال الجميل، جعلني أحاول أن يكون الحوار غير تقليدي في التعداد أو استعادة الأزمان، ولذلك فقد كان سؤالي حول هذا التطواف العربي من واقع العمل المؤسسي والاتحاد النسائيّ والظروف الطارئة التي قد تكون عطّلت بعض المشاريع الطموحة لدى هيفاء البشير في بلداننا العربية بسبب هزّات السياسة والحروب، ومدى أهمية الدور الكبير الذي تبذله البشير في زمن قديم لتكون شمعةً تستهدي بها بنات جيلها وتشاركها النساء القليلات والطموحات في تكريس دور المرأة

الأردنية وإظهاره، لأنّه بالفعل سينعكس على المجتمع ككل وعلى تطوير موقف المرأة الساكن أمام كثير من أمور المشاركة.

جهود عربية وتحديات..

تقول البشير إنّها كانت على رأس وفد من قِبل الاتحاد النسائي العام تحت اسم «مساعي حميدة» توجّه إلى سورية، بمشاركة مع نساء قياديات خليجيات وعربيات، وكانت سعيدةً جدًّا بالفكرة، إلا أنّها ومع زيارتها لكلّ المناطق الرائعة في سورية، كان هناك متغير جديد يدخل على الساحة وهو غزو العراق للكويت، فانتهى الموضوع على أحزان الفكرة التي توقفت أو تعطّلت بسبب هذا الحدث.

وتذكر البشير أسماء عديدة من النساء اللاتي شاركنها العمل التطوعي في الاتحاد النسائي العام، ومن الكويت أيضًا، وهذا معناه أن استقرار الدول والشعوب في الواقع، دائمًا ما يكون سببًا في نجاح التواصل والتفاهمات الإنسانيّة، في حين أن الحرب تعطّل كلّ ذلك فجاةً ودون سابق إنذار.

وللبشير في دول مثل السعودية أيضًا حضورها الكبير في النشاطات التطوعيّة والمشتركة، وهي اسمٌ بارز هناك ورأيها مهم في أفكار إنسانيّة لرعاية المسنين وكبار السّن، أمّا في الإمارات فقد فازت بجائزة الأسرة العربيّة التي كان أعلنها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم حاكم دبي، وقد فازت السيدة هيفاء البشير وسط منافسات قويّة من نساء عربيّات في هذا المجال بواقع 500 أسرة من شتى بلدان العالم العربي، لتأخذ الجائزة الأولى تحت مسمى جائزة مهرجان دبي للأسرة العربية المثالية، وسط فرحة العائلة الصغيرة والعائلة الأردنية والعربية الكبيرة بهذا الإنجاز في حفل تسليم الجائزة الذي شهد حضورًا كبيرًا في ذلك الوقت من عام 1976.

تستذكر السيدة البشير في الفترة ما بين 1981-1990 أنّ رئاسة الاتحاد النسائي العربي كانت في العراق، وأنها كانت رئيسة الاتحاد النسائي الأردني في ذلك الوقت، مستعيدةً نشاطًا ملحوظًا تسَمَّتْ خلاله في إحدى اللقاءات في لجنة مهمّة بشخصياتها المعروفة، وهي لجنة متابعة آثار حرب الخليج التي كانت عضوًا فيها في اجتماعات متعددة في جنيف ولندن وأماكن أخرى.

وفي البحرين كذلك، كان للبشير حضورها الكبير مع شخصيات مثل الشيخة لولوة آل خليفة المشهود لها بالعطاء والدافعية والإنجاز، وهكذا، فقد كان لهذا الحضور أثره الكبير في الخبرة والعطاء من خلال الاتحاد النسائي الأردني بطبيعة الحال، ذاكرةً أنها شاركت في مؤتمر لثلاثين ناديًا كان الوفد الأردني هو الوحيد فيه الممثل للعنصر النسائي، لافتةً إلى مشاركة الناشطة الاجتماعيّة السيدة ميسون العرموطي أيضًا. وتستذكر السيدة هيفاء البشير أنّها قدّمت ورقةً وطرحت خطابًا مهمًّا حول أسس النجاح في مجال ذلك المؤتمر، وحصلت على تكريم وجائزة آنذاك. أمّا المغرب العربي فتشير البشير إلى زيارتها المغرب وتونس وما قدّمته من أنشطة فاعلة في عمل المرأة، وتذكر أيضًا مشاركتها في نيروبي حين ترأست الوفد الشعبي والرسمي إلى هناك. وتذكر كذلك مؤتمرات أجنبية للمرأة في الأمم المتحدة، وكذلك تقديمها ورقةً في الجامعة الأميركية ببيروت، في مشاركة تتعلق بموضوع الموروث الشعبي، ففي لبنان كان للبشير حضورها القوي أيضًا في مركز التفكير الإبداعي وقوّة التأثير نحو قيادة التغيير، وقد قدمت في هذا المؤتمر ورقةً أو شهادةً إبداعيّةً تحت عنوان «المرأة العربية ودورها في بناء المجتمع السليم: هيفاء البشير نموذجًا».

وفي السودان كذلك كان لها ذكرياتها العطرة، ففي سنة 1976 كانت حاضرة أيّام حكم جعفر النميري، مستذكرةً في ذلك الوقت صديقتها في السودان عضو الاتحاد النسائي العربي نفيسة الأمين الأستاذة في اللغة العربية، معتزةً بدور هذه الإنسانة وتأثيرها على مجتمعها في الفكر والثقافة والسلوك الاجتماعي.

ذهنية المرأة العربية

أمّا جائزة الشارقة، فتراها البشير تكريمًا طيبًا يحفزها على العطاء المتزايد وبذل الجهود في مجال عملها. وفي المقابل كانت للبشير مشاركات دوليّة، في الولايات المتحدة وفي برلين الشرقية وكذلك كوبنهاجن ثم نيروبي فبكين، لافتةً إلى لمسة الأمم المتحدة التي ساعدت بتعزيز دور المرأة العربية في العالم.

وقد سألتُ السيدة هيفاء البشير بعد كلّ هذا التطواف: كيف تقرئين ذهنية المرأة الأردنية والعربية بوجه عام عقب هذا الخضمّ الكبير من الإنجاز والعطاء؟! وأمام أعراف مجتمعات كانت ترى في عمل المرأة عيبًا أو أمرًا محرّمًا في فترات وعقود سابقة؟ فكانت إجابة البشير التي عاصرت أوائل حركة المرأة أثناء انغلاق هذه المجتمعات، أنّ الظروف لم تكن مساعدةً على الإطلاق؛ إذ كان ممنوعًا على المرأة الاختلاط مع الرجل، مستذكرةً قصصًا اجتماعية في الخمسينات تحرّم على المرأة أن تقيم خارج البيت للتحصيل العلمي، وبالمقابل فقد اتجهت هي بعد أن تجاوزت الأربعين من عمرها للدراسة في الجامعة، في نوع من المقارنة حتى في ذلك الوقت، إذ كان والدها قد توفي، وقد كانت الأمور في السابق صعبةً جدًّا، فلم يكن هناك دراسة للتمريض بحجة الاختلاط، فكانت المشاركة والآمال مسدودة، وفي هذا المجال تعيد البشير الفضل بعد الله لزوجها الراحل الوزير الشهيد محمد البشير الذي كان يفتح لها الطريق ويمدّها دائمًا بحكمته ورؤيته الحضاريّة والواثقة بمقدرة المرأة على الإسهام في كلّ مجالات الحياة، وهي نظرة متقدّمة ورائعة منه في خضمّ ظرف صعب في ذلك الوقت.

شخصية قيادية

في الأثناء كانت تحضر حواري مع السيدة هيفاء البشير، السيدة ميسون العرموطي التي كانت تنشغل نوعًا ما بأوراق جمعية الأسرة البيضاء لتطّلع عليها البشير، خصوصًا

والعرموطي هي رفيقة حميمة وصديقة قديمة لهيفاء البشير في العمل التطوعي والنسائي، وقد أبدت العرموطي إعجابًا كبيرًا بشخصيّة البشير الهادفة والنوعيّة والكبيرة وتصميمها على النجاح وراء هذا الكسر لحاجز الخوف والتقهقر، بعيدًا عن المشاركة بسبب دافعها وحافزها الكبير وراء ذلك.

حوار الأجيال

قلتُ للبشير، حين تطرّق الحوار إلى فضائها الإنسانيّ: أنتِ تكتبين للطفولة والأجيال الجديدة كتابةً تدلّ على مراسك مع الأدب، وأنت عضو اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين، ولك كتابات عن سيرة حياتك، فكيف استطعتِ أن تصنعي حوارًا بين الأجيال عن طريق الكتاب الورقي و«الآي باد»؟ بمعنى آخر الحوار بينك وبين حفيدتك سما، بطريقة جميلة ومحببة وفيها شذرات إنسانيّة لطيفة من حكمتك وتجربتك مع الحياة، لطفلة تحاول أن ترى هذا العالم الجميل بمحبة ودفء وصدق وبراءة وفرح عارم بمكتسبات هذا العصر التكنولوجيّة؟!

وقد كانت إجابة السيدة هيفاء البشير أنّ هذا العصر له ظروفه، وأنّ الأطفال هذه الأيّام والأحفاد يعيشون حياةً أفضل، مقارنةً مع ذلك الزمان وضرورات الاعتماد على الذات وتجاوز الصعاب في الوقت الماضي بكلّ ما فيه من أحزان وتعب ومشقّة، خاصةً للمرأة والنظرة العامة لها، لذلك فإنّ ما حاولتْ أن تبثّه إلى حفيدتها كان عبارة عن نصائح غير ثقيلة لتسير في حياتها واثقةً، وقد اعتمدت على زادها الثقافي الذي تكتسبه من أهلها، فالتحديات كما ترى السيدة البشير ربما تكون في أنواع ثقافيّة جديدة علينا أن نفهمها وأن يكون أبناؤنا أكثر وعيًا فيها. أمّا من الناحية الفكرية والثقافية فقد حاولت البشير أن تبوح بشيء من آلام ذلك العصر وفرحته أيضًا في طفولةٍ، صحيح أنّها كانت تسير فيها مسافات طويلة مشيًا على الأقدام، لكنّ أيّ طفلٍ كانت تتملّكه الفرحة بطفولته، لا فرق بين غني

وفقير، شقي وسعيد، فالطفولة كما فهمتُ من حديثي مع البشير هي عالم للشخص نفسه، وهي القصة أو الحكاية الأولى مع الحياة يظلّ يرويها المرء لمن يأتون بعده مدى الحياة.

وقد أثّرت البشير فعلًا في أحفادها بالكلمة الطيبة والنصيحة غير الثقيلة ومراعاة ظروف هذا العصر ومعطياته التكنولوجيّة، ذاكرةً أنّ حفيدتها دينا عوني البشير التي تخوض الانتخابات هي خريجة الجامعة الأردنية ثم بريطانيا في الماجستير!

الثقة باللَّه..

مهما قلنا عن السيدة البشير يظلّ الكلام في الحقيقة قليلًا وغير قادر عن الوفاء لسيدة كان شعارها دائمًا مواصلة الدرب والتعب والنّفَس الطويل في معالجة الأمور.

ويبدو أنّ هذه السيّدة التي آمنت بقضاء الله وقدره وصبرت على حُكْمه وهو القادر المتصرف في الأمور وشؤون الكون، لديها إيمان عميق بالله وثقة كبيرة بتوفيقه وما يمدّها به من صبر، حتى مع رحيل ابنها البكر الدكتور مازن البشير في حادث سير قبل مدّة بسيطة، مستذكرةً والده الوزير الدكتور محمد البشير الذي قضى شهيدًا في زمن بعيد، وهذا في الواقع أمرٌ محزن تتغلّب عليه هذه السيّدة بالصبر الذي هو هبة الخالق لمن يحبهم ويبتليهم، لذلك فإنّ العطاء الإنسانيّ لديها يتوزّع من قلب رحيم بالناس استمدته من هذه الثقة العالية بالله، خاصةً وهي تجد كما أخبرتني في القرآن الكريم راحةً واطمئنانًا وتخفيفًا عن الفقد وأحزان الأمس واليوم.

المنتدى.. والرواق

هيفاء البشير التي وجدت نفسها في العمل الإنساني والخيري والتطوعي، صنعت من منتدى الرواد الكبار بيئةً خصبةً للفكر والثقافة. وقد جعلته منبرًا حضاريًّا يرتاده كل المثقفين والمبدعين والإعلاميين، وقد كانت وما تزال أنشطة هذا المنتدى حاضرةً كهيئة

ثقافية لها منافذها على نشاطات وزارة الثقافة. وقد جاء المنتدى بدعم من أمانة عمان، وهي الآن على وشك تأسيس رواق أردني مميز في المنتدى تحرص على أن يكون الحضور الأردني فيه ملموسًا من خلال هذا الرواق أو المتحف الذي سيقف على رجليه بعد الانتهاء من الدراسات الضامنة لنجاحه، ليغطّي 22 محطة أردنية تروي ذاكرة الأجيال وتراثهم وأزياءهم وآثارهم وتحافظ عليها من النسيان.

في سؤال السيدة البشير، عن مدى رسوخ الثقافة العربية الإسلاميّة في نفس المرأة الأردنية والعربية اليوم، تؤكّد أنّ الهوية لا تنفي التقدم والتطوّر والتشاركية والتحرر من الخوف أمام هذه المشاركة، لافتةً إلى أنّ القرآن الكريم فيه ثقافة كبيرة علينا الاتعاظ بها وفهمها الفهم الوسطي الصحيح والمعتدل لتستمر الحياة، فهو يحثّ على العلم والبناء دون تعصب وانغلاق أو نظرة أحادية سلبية للآخرين والأديان الأخرى، فالدين هو فطري وهو مرآة لعلاقة الإنسان بربه في سلوكه القويم واحترامه لمشاعر الناس والعمل بالقانون وفهم الآخر، وكلّ ذلك يشكّل الطريق الصحيح نحو رضا الله وتوفيقه.

من جهة أخرى، تؤكّد البشير اعتزازها الكبير بجهود جلالة الملك عبدالله الثاني للأردن والإنسان والعطاء، خاصةً وهي الحاصلة على جائزة الملك عبدالله الثاني للعطاء المتميز عام 2007، في سياق احتفالات الأردن بعيد الاستقلال، فجلالته شخصيّة فريدة، وهو يمتلك رؤيةً جادةً، وقد عمل على نقلة نوعية وحضاريّة علمية وتربوية للوطن والأجيال، من خلال تأكيده أهمية الاطلاع على الثقافات وأوجه التطور التكنولوجي بعد الألفية، وها نحن نسير في ظلّ هذه الرؤية الواثقة لجلالته حفظه الله ورعاه.

لا تحبّ الأضواء

في الواقع، لا تحبّ السيدة هيفاء البشير الأضواء كثيرًا بالرغم من كلّ ما تقدّمه من جهود، خاصة في مجال دار المسنين التي يصل عمرها إلى أربعين سنةً بعد أن أسستها

البشير وتشتمل على مئة وثلاثين نزيلًا غير مقتدر ومنحدر الصحة ومتوحد، وتقول في هذا المجال إنّ جلالة الملك كان الداعم الكبير لهذا المشروع الإنساني، وهو الحافز والدافع لكي يكون هذا المكان مؤهلًا لعمله المهم والنبيل، كما تؤكّد جهود جلالة الملكة رانيا العبدالله في اهتمامها الكبير بالتعليم وشؤون الأسرة محليًّا وعلى الصعيدين العربي والعالمي.

رسالة حقيقية

في ختام هذه الجلسة في مكتب السيدة البشير بمنتدى الرواد الكبار، وبينما المثقفون ذاهبون آيبون والمنتدى خلية من النشاط والعمل والتواصل مع جمعية الأسرة البيضاء، وأيضًا التباحث حول آخر مستجدات المشهد الثقافي في الأردن. توجّه البشير رسالة حقيقيّة إلى المرأة الأردنيّة بأن تكون جادةً في مشاركتها المجتمع في كلّ شؤون الحياة، فهي عنصر فاعل في الأسرة والوظيفة والبرلمان والتعامل اليومي، وليست منعزلةً أو ترتد إلى أزمان سحيقة في هذا المجال، وعلى المرأة الأردنية أن تعي أنّها في وطن يمنحها الحرية ويكفلها لها ويؤمن بدورها في الحياة العامة، فالعمل ليس منوطًا كما تقول بعمر معيّن، مُذكّرةً أنّها دخلت الجامعة الأردنية وكان عمرها قد تجاوز الأربعين وذلك بعد أن تخرّج أبناؤها من الجامعة، فالعمل عبادة وشعور بتحقيق الذّات، والثقافة أكبر حافز ليكون في قلبنا متسعٌ للعمل التطوعي والخيري ومساعدة الناس.